موازنة بين كتابي البرهان في علوم القرآن والإتقان

د . قرل عبدالمالك

المركز الجامعي البيض

لعل ظهور التأليف الموسوعي الجامع لعلوم القرآن هو السمة الجديدة آنداك، حيث كانت في البداية محاولات لضم مجموعة من العلوم الهامة و التي كثرت في تفسيرها الأقوال و تعددت المذاهب، و تضمنت تلك المؤلفات علوما بعدد ، ثم سرعان ما اتجهت الهمم لجمع العلوم التي تخدم النص القرآني في كتاب واحد.

و على هذا الأساس أقف عند هذا البحث على جملة الآراء المختلفة حول تحديد أول من صنف في علوم القرآن كعلم مستقل بذاته، بدراسة موازنة بين كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي وكتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .

إن أغلب الذين صنّفوا في علوم القرآن قد أجادوا في عرض الموضوعات و معالجتها – مع تفاوت بينهم في هذه الإجادة – غير أننا نقر و نعترف بالفضل للزركشي صاحب " البرهان " الذي جاء في منتصف هذه المرحلة ، و الذي تولى ريادة هذا المنهج العلمي الدقيق في عرض الموضوعات، الذي سار عليه جلٌّ من جاء بعده، حتى الحافظ السيوطي صاحب أشهر المصنفات في هذا الفن أقر بذلك فقال: " و رتبت أنواعه (أنواع علوم القرآن) ترتيبا أنسب من ترتيب البرهان، و أدمجت بعض الأنواع في بعض و فصلت ما حقه أن يبان، و زدته على ما فيه من الفوائد و الفرائض و القواعد و الشوارد ما يشنف الآذان".[1]

ويتجلى لنا من خلال هذا القول اعتماد السيوطي في إتقانه على " البرهان "، فالزركشي – كما هو معلوم- أول من سبق للتأليف في علوم القرآن كعلم مستقل. فالسبق والاقتداء يقتضيان منا وضع موازنة بين الكتابين، لإبراز أنواع علوم القرآن التي بلغت ذروتها في الجمع و الاستقصاء، ولبيان مواطن الاتفاق بينهما، ومواضع تفرد كل منهما.

البرهان في علوم القرآن:

لمؤلفه الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة (794 هـــ) . الذي يعتبر أول جامع لعلوم القرآن بشكل شامل، و ما من شك أنه كان أمام مهمة شاقة وعسيرة، فقد قدم الزركشي لكتابه بمقدمة هامة يبين فيها فضائل القرآن، و ساق فيها أقوال الأئمة في ذلك، واستعرض بإيجاز نشأة القرآن و تطوره، وذكر أعلام علمائه، وخلص بعد ذلك لذكر دوافع تأليف كتابه، وهو أنه لم يجد فيما كتبه السابقون كتابا جامعا لعلوم القرآن ثم استعرض عناوين أنواع علوم القرآن التي ضمنها في كتابه.

وقد وقف الزركشي في جمع معظم علوم القرآن في كتابه و في تقسيمه لأنواع الكتاب، وفي عرض كل فن منها عرضا علميا، و تفاوتت الأنواع عنده، من حيث التوسع في العرض و الاختصار، تفاوتا كبيرا.

- **الإتقان في علوم القرآن :**

لمؤلفه جلال الدين البلقيني عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة (911 هـــ). يقول حاجي خليفة :" الإتقان في علوم القرآن مجلد أوله الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب إلخ للشيخ جلال الدين البلقيني عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة (911 هـــ) و هو أشبه آثاره و أفيدها " ، ذكر تصنيفه شيخه الكافيجي واستصغره "مواقع النجوم" للبلقيني و استقله، ثم أنه

وجد " البرهان " للزركشي كتابا جامعا بعد تصنيفه "التحبير" فاستأنف و زاد عليه إلى ثمانين نوعا، و جعله مقدمة لتفسيره الكبير الذي شرع فيه و سماه " مجمع البحرين ".[2]

والسيوطي في عرضه لمادة البحث يستعين بأقوال أئمة الفن الذي يتكلم عنه وهو يسمّيهم في كثير من الأحيان، وقد يسمي كتبهم التي نقل منها، ولكنه يتصرف في النقل، ويضع العبارات المنقولة بأسلوبه، وقد حفل كتابه بأسماء كثيرة من الأئمة الأعلام في علوم القرآن و اللغة و الحديث و الفقه، وأسماء كثيرة من المؤلفات المتنوعة في علوم القرآن و غيرها بالشواهد القرآنية الغزيرة و الشواهد الحديثة و الأمثال العربية، والأشعار و الأرجاز، و صار موسوعة قرآنية، ضمت بين ضفتيها كل ما يتعلق بعلوم القرآن الكريم وهذا ما نجده في كتاب " البرهان ".

- **" البرهان" و" الإتقان " في الميزان :**

إن الدافع الحقيقي لإجراء دراسة موازنة بين هذين الكتابين هو ما وجدته من اشتراك في موضوعات علوم القرآن والهدف من هذه الدراسة هو الاطلاع أكثر على أهمية كل منهما في تطور تأليف علوم القرآن، و للتوضيح ضمّنت الأنواع التي تطرق لها كل من الزركشي و السيوطي في أربعة جداول حسب الترتيب الآتي:

- الجدول الأول : أنواع علوم القرآن في كتاب " البرهان ".
- الجدول الثاني : الأنواع المشتركة في " الإتقان " و " البرهان ".
- الجدول الثالث: الأنواع التي انفرد بها " البرهان ".
- الجدول الرابع: الأنواع الزائدة في " الإتقان " على ما في " البرهان

- **الجدول الأول : أنواع علوم القرآن في كتاب " البرهان "**

رقم النوع	اســـــم النـــوع	عدد صفحاته	رقم النوع	اســـــم النـــوع	عدد صفحاته
01	أسباب النزول	13	39	وجوه تواتره	22
37	الآيات المتشابهات في الصفات	12	22	قراءاته	21
13	جمع القرآن و حفّاظه من الصحابة	11	32	أحكامه (الفقهية)	21
28	فضائل سوره	11	09	المكي و المدني	19
13	أسماؤه و اشتقاقاتها	10	02	المناسبات بين الآيات	18
20	بلاغته	10	07	أسرار لفواتح و السور	18
36	المحكم والمتشابه (في المعاني)	10	11	لغات القرآن	18
04	الوجوه و النظائر	09	40	معاضدة السنة للكتاب	18
06	مبهماته	09	44	كنايته و تعريفه	16
31	أمثاله	09	39	وجوه تواتره	22
21	فصاحته	07	22	قراءاته	21
18	غريبه	06	32	أحكامه (الفقهية)	21
08	خواتم السور	05	09	المكي و المدني	19

10	أول ما نزل و آخره	05	02	المناسبات بين الآيات	18
30	الاقتباس و التضمين	05	07	أسرار لفواتح و السور	18
24	ناسخه و منسوخه	05	11	لغات القرآن	18
12	كيفية إنزاله	04	40	معاضدة السنة للكتاب	18
16	ما فيه من غير لغة قريش	04			

رقم النوع	اســـــم النـــــوع	عدد صفحاته
19	تصريفه	04
27	خواصه	04
33	جدله	04
23	توجيه قراءاته	03
26	فضائله	02
46	أساليب القرآن وفنونه البلاغية	779
47	الكلام على المفردات من الأدوات	270
41	التفسير و التأويل	70
45	أقسام معنى الكلام	66
25	مرسوم الخط	56
03	الفواصل و رؤوس الآيات	49
43	حقيقته و مجازه	45
05	المتشابه (اللفظي)	44
42	وجوه المخاطبات	37
38	إعجازه	35
24	الوقف و الابتداء	24
29	آداب تلاوته	32
14	تقسيم سوره و آياته	29
35	الموهم و المختلف	23

- **الجدول الثاني : الأنواع المشتركة في " الإتقان " و " البرهان ".**

رقم النوع في الإتقان	رقم النوع في البرهان	اسم النـــــــــــــوع
35	29	آداب تلاوته
40	47	الأدوات التي يحتاج إليها المفسّر
70	06	مبهماته
68	33	جدله
18	13	جمعه

حقيقته و مجازه	43	52
محكمه ومتشابهه	36	43
في خواتم السور	07	61
خواصه	27	75
مرسوم الخط	25	76
سبب النزول	01	09
أسماء القرآن و أسماء سوره	15	18
المتشابه(اللفظي)	05	63
المشكل و الموهم (الاختلاف و التناقض)	35 و 37	48
إعجازه	37	64
إعرابه	20	41
ما فيه من غير لغة العرب	17	38
غريبه	18	36
تفسيره	41	

أفضل القرآن و فاضله	27	73
فضائله	26	72
كنايته و تعريفه	44	45
ما فيه من غير لغة الحجاز	16	37
أمثاله	31	66
المكية و المدنية	09	01
كيفية إنزاله	12	16
أول ما نزل و آخر ما نزل	10	07 و 08
مناسبات الآيات و السور	02	62
ناسخه ومنسوخه	34	47
متواتره و مشهوره و آحاده و شاذه	39	22 و 27
وجوهه و نظائره	04	39
الوقف و الابتداء	24	27

الجدول الثالث: الأنواع التي انفرد بها " البرهان ".

رقم النوع	اســـــم النـــــــــــــــــــوع
32	أحكامه
42	معرفة الوجوه المخاطبات
35	معرف توهم المختلف
07	أسرار الفواتح
46	أساليب القرآن
19	تصريفه
30	تضمين الآيات في الرسائل و الخطب
40	معاضدة السنة للكتاب
21	فصاحة القرآن
03	الفواصل و رؤوس الآيات
22	قراءاته
23	توجيه قراءاته
67	أقسامه
14	تقسيمه بحسب سوره و ترتيب السور و الآيات و عددها
11	لغة القرآن (الأحرف السبعة)

- **الجدول الرابع: الأنواع الزائدة في " الإتقان " على ما في " البرهان ".**

رقم النوع	اســـــم النـــــــــــــــــــوع	رقم النوع	اســـــم النـــــــــــــــــــوع
06	الأرضي و السمائي	44	مقدمه و مؤخره
57	بديع القرآن	32	المد و القصر
46	مجمله و مبينه	30	الإمالة و الفتح و ما بينهما
55	في الحصر و الاختصاص	65	العلوم المستنبطة من القرآن
02	معرفة الحضري و السفري	71	في أسماء ما نزل فيهم القرآن
20	معرفة حفّاظه و رواته	15	ما أنزل منه على بعض الأنبياء
34	في كيفية تحمله	14	ما نزل مُشَيّعاً و ما نزل مفردا

57	في الخبر و الإنشاء	12	ما تأخر حكمه عن نزوله و العكس
33	في تخفيف الهمز	13	ما نزل مفرقا و ما نزل جمعا
31	في الإدغام و الإظهار و الإخفاء و الإقلاب	10	فيما أنزل على لسان بعض الصحابة
69	في ما وقع في القرآن من الأسماء و الكنى و الألقاب	50	منطوقه و مفهومه
53	تشبيهه واستعاراته	03	النهاري و الليلي
04	الصيفي و الشتائي	56	الإيجاز و الإطناب
80	طبقات المفسّرين	29	الموصول لفظا المفصول المعنى
05	الفراشي و النومي	44	مقدمه و مؤخره

نستنتج من الجداول السابقة أن أنواع علوم القرآن بلغت عند الزركشي سبع و أربعون نوعا، بينما بلغت عند السيوطي ثمانين نوعا، وبذلك يكون قد أضاف ثلاثة و ثلاثين نوعا على ما في البرهان، وهذه الزيادة منها ما هو توسعة لنوع واحد عند الزركشي، كالنوع العاشر في " البرهان " مثلا.

كما نلحظ تصرف السيوطي في الأنواع التي أخذها من البرهان فقدم بعضها وأخر بعضها الآخر ، و وسّع بعضها، ومن أمثلة تقديمه و تأخيره للأنواع، أنه جعل النوع الأول في " البرهان " و هو: سبب النزول ، تاسعا في " الإتقان " و التاسع في " البرهان " (المكي و المدني) أوّلا عنده، و الرابع في " البرهان " أقصد الوجوه و النظائر ، تاسعا و ثلاثين عنده ، و هكذا...

•قمة و تحقيق:

قد يتساءل الباحث ما مدى اعتماد السيوطي على " البرهان " و ما قيمة كتابه أمامه ؟ و الواقع أن الإجابة عن هذا التساؤل أمر شاق وعسير، لأن الباحث يجد نفسه أمام فريقين من العلماء تجاه السيوطي نفسه و اتجاه كتبه، فبعضهم يغالي بذمه و يرميه بأنه أغار على محتويات المكتبة المحمودية ونسبها لنفسه، و بعضهم الآخر يقدره و يصفه بالنبوغ، و يجلّه عما رماه به حاسدوه من الانتحال، ومهما يكن من أمر، فإن الكتابين هما خير حكم للفصل في هذا الأمر، وهما مطبوعان ومتوفران بين أيدي الباحثين، و يستطيع القارئ أن يحكم بنفسه على قيمة كل منهما إذا ما أجرى مقارنة بسيطة بينهما.[3]

يقول حاجي خليفة في الكلام على البرهان – كما سبق – (و السيوطي أدرجه في الاتقان) و هذه قمة خطيرة سبقه بها غيره من حساده والواقع أن المنزلة الكريمة التي نالها السيوطي في حياته ووفرة فتاويه وأماليه و مصنفاته أثارت خصومة بينه و بين منافسيه من أقرانه وعرّضته لمختلف الطعون، فرمي بالسطو على كتب المكتبة... و قد انتصر السيوطي لنفسه في عدة كتب منها " الكاوي على تاريخ السَخاوي " ، و " الجواب الزّكي عن قمامة ابن الكركي " ، و " القول المجمل في الرد على المهمل " ، و " الصارم الهندي في عنق ابن الكركي " ، كما انتصر له أمين الدين الأقصرّائي و زيد الدين قاسم الحنفي، و سراج الدين العبادي ، و الفخر الديميّ و كثير من تلاميذه و مريديه.[4]

و يضيف يوسف المرعشلي في تحقيق التهمة و تفنيدها بقوله : " و كان رحمه الله إلى جانب علمه و وفرة محصوله عفيفاً كريماً ، صالحاً تقياً رشيداً ، لا يمد يده إلى سلطان، و لا يقف من حاجة على باب أمير أو وزير... فمن المستبعد من حمدت سيرته أن يلجأ إلى انتحال كتب غيره ليكسب بها شهرة دنيوية رخيصة بين أقرانه".[5]

- **قول السيوطي في البرهان:**

شهد السيوطي للزركشي بالريادة في هذا الباب لكن على سبيل البسط و الإحصاء و السير على منهج الاستقصاء، فقد قال في خطبة كتابه : " خطر لي بعد ذلك – يعني بعد تأليف كتاب التحبير- أن أؤلف كتابا مبسوطا ، ومجموعا و مضبوطا أسلك في طريق الإحصاء، و أمشي فيه على منهاج الاستقصاء، هذا كله و أنا أظن أني متفرد في ذلك غير مسبوق في الخوض في هذه المسائل،.."

إلى أن قال: " إذ بلغني أن الشيخ الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ألف كتابا في ذلك حافلا يسمى " البرهان في علوم القرآن " فتطلبته حتى وقفت عليه ".(6)

و ذكر أنه فرح بهذا الكتاب لما سمع به، و أنه حصل عليه و قرأه، غير أنه لم يثن عزمه على وضعه كتابه بعد اطلاعه على" البرهان " ترى لماذا ؟ ألأنه وجده ناقصا غير واف في هذا الموضوع ؟ أم أنه وجد نفسه يستطيع أن يضع كتابا على المنهجية الموسوعية التي كان يتصف بها، يستجمع فيه كل مسائل هذا الفن على سائر ما فعل في تصانيفه، و قد أجاب بنفسه عن ذلك فقال : " و لما وقفت على هذا الكتاب (البرهان) ازددت به سرورا و حمدت الله كثيرا و قوي العزم على إبراز ما أضمرته و شددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته، فوضعتُ هذا الكتاب العليّ الشأن الجلي البرهان الكثير الفوائد و الإتقان".(7)

و في ختام هذا البحث نقر للزركشي بأن من جاء بعده قد اعتمد على مادة كتابه العلمية، فكان الأساس الذي بنى عليه من جاء بعده تأليفهم، حتى الأمثلة التي استشهد بها الزركشي نجدها هي نفسها التي اعتمدها المتأخرون، و قد أثبت الأسبقية لنفسه حين ذكر في تقديمه للبرهان أنه مما فات المتقدمين وضع كتاب يشمل على أنواع علومه، كما وضع ذلك بالنسبة إلى علم الحديث ، قال : " فاستخرت الله تعالى – و له الحمد – في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلم الناس في فنونه".(8)

الإحالات :

(1)ــ السيوطي جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن ،- *الإتقان في علوم القرآن* ، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم ، مكتبة المشهد الحسيني ، القاهرة ، مصر ج 1 ، ص 20

(2ــ) حاجي خليفة ، *كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون* ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 1989 ج1 ، ص 8 .

.(3) الزركشي بدر الدين ، *البرهان في علوم القرآن* ، تحقيق: يوسف المرعشلي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 2 ، سنة 1415 هـ ، 1994 م ،ج1.،ص 77

(4)المصدر نفسه ، ص 77 .

(5) السيوطي جلال الدين ، ج 1 ، ص 9 .

(6) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 10 .

(7) ــ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : إبراهيم الفضل ، ج 1 ، ص 9

(8)المصدر نفسه ص 78